

الصحافة المطبوعة والزحف الإنترنتي

د . بوعلي نصير (الإمارات)

مقدمة :

تتناول هذه الدراسة علاقة الصحافة المكتوبة المطبوعة (أي الجريدة أو المجلة) بالتحدي الجديد الذي جاءت به الإنترنت والذي كرس مفهوم الصحافة الإلكترونية أو صحافة أولن لاين. وتفترض هذه الدراسة طرح السؤال المحوري الآتي : هل ستنهار إمبراطورية الصحافة المطبوعة مع هذا الزحف العارم لشبكة الإنترنت أم أنها ستستطيع التأقلم مع هذا التهديد وإعادة ترتيب أولوياتها لتخرج من المواجهة بأقل الخسائر ؟ وهو ما وقع لها عبر فترات تاريخ مختلفة وخاصة مع ظهور الراديو والتلفزيون في الثلاثينات والخمسينات من القرن الفارط . وخرجت في مواجهتهما بنجاح...

وانطلاقاً من هذا السؤال المحوري سوف يتم التركيز هنا على جدلية التكامل و/ أو التناظر بين الوسائل الإعلامية عبر التاريخ وصولاً للمواجهة الحالية (الساخنة) بين الإعلام المطبوع والإعلام الإلكتروني وذلك في العالم الغربي (أمريكا على الخصوص) والعالم العربي أيضاً.

وسائل الإعلام بين التكامل والتناظر: مقارنة تاريخية

إنّ المنتبغ لتاريخ وسائل الاتصال وتطورها يجداًه رغم تعددها وملاحقاتها المستمرة والدائمة للمسار التكنولوجي، فإن اختراع إحداها وانتشارها في الأسواق وتداولها بين الناس لم يقض بالضرورة على الوسائل السابقة لها. والأمثلة على ذلك كثيرة : لنأخذ مثلاً الصورة الثابتة، أنه رغم ما تثيره الصورة المتحركة التي تعرض في السينما أو التلفزيون وحتى الصورة الفوتوغرافية في الصحافة المكتوبة من استهواء فوري، فإنّ الصورة الثابتة لم تفقد شيئاً من أهميتها على نحو ما يشهد به استعمالها الواسع والمتنوع في إعلانات الحائط والملصقات ولوحات الإعلانات الضخمة والمجلات والقصص المصوّرة إلخ .

فقد كانت الملصقات وسيلة اتصال مفضلة في لحظات معينة من التاريخ مثلما كانت في الحرب العالمية الأولى و في الثورة المكسيكية وفي ثورة أكتوبر السوفيتية و في حركات الطلبة في الستينات و في فترات تغيير مختلفة في الصين...⁽¹⁾

كما أنّ الراديو حينما ظهر وانتشر وتطور من جهاز كبير الحجم ثقيل الوزن في حاجة إلى تيار كهربائي للتشغيل ، إلى جهاز صغير الحجم ، خفيف الوزن يعمل بالبطارية الصغيرة لم يقض على الصحافة المطبوعة (الورقية) التي سبقته بسنوات كثيرة ، بل كيفت هذه الأخيرة نفسها لمواجهة منافسها، فأصبحت الصحف تهتم هي الأخرى بتنوع مواضيعها وبتنوع الصور و الرسوم كما استعانت بالألوان ..ولقد أوضحت الباحثة جيهان أحمد رشتي في دراسة حول الإعلام ونظرياته في

العصر الحديث أن الاستماع إلى الراديو لا ينافس بالضرورة عادة القراءة الصحفية، ولكنه يُعتبر مُكملاً لها. (2) كما أنّ إختراع شرائط التسجيل الصوتي وإختراع المانيتوسكوب لم يفظ على الراديو كوسيلة حيث تختلف وظيفة كليهما . وبظهور التلفزيون بقوة بعد الحرب العالمية الثانية كوّنت الصحف نفسها مرّة أخرى لمواجهة المنافس الجديد . كما أنّ التلفزيون لم يقض على صناعة السينما التي يرجع تاريخها إلى سنة 1895 ، وإنما استفاد التلفزيون من الإنتاج السينمائي، حيث - كما هو واضح - لا تخلو قناة تلفزيون (أرضية أو فضائية) في أي دولة اليوم من تقديم فلم سينمائي كفقرة مستقلة ضمن برامجه العامة . واستعان التلفزيون في بدايته بالخبرة السينمائية من مصوّرين ومخرجين وكتاب سيناريو وممثلين ، وحرصت السينما على تطوير نفسها من الناحية الفنية لمواجهة المنافس الذي ظهر لها بعد أن استحوذت على الجمهور لما يقرب من أربعين عاماً انفردت به خلالها كوسيلة سمعية - بصرية قبل ظهور التلفزيون .(3)

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحدّ (صحافة مطبوعة، راديو ، تلفزيون ، سينما ، اسطوانات ...) فقد ظهر التلفزيون السلبي والفيديو كاسيت ونظام الألياف البصرية وبنوك المعلومات والإعلام الآلي وآخرها شبكة المعلومات السريعة أي الإنترنت التي أحدثت ثورة هائلة في مجال الاتصال وأدت إلى ظهور منافس جديد للصحافة المكتوبة ألا وهو الصحافة الإلكترونية4.

علاقة الصحافة المطبوعة بالإنترنت : الغرب مثالا:

مما لا شك فيه، أن هذه الخلفية قد تساعد في إلقاء الضوء على ما يحمله هذا القادم الجديد المسمى بالإنترنت من تغيير قد يهدد الوضع القائم بالنسبة للصحيفة المطبوعة وغيرها من وسائل الاتصال والإعلام الجماهيري ، وما نعرفه اليوم من علاقة الإنترنت بالصحافة المطبوعة هو من خلال المعطيات الآتية :

أولاً : أنّ غالبية الصحف اليومية في الغرب تدير مواقع الكترونية خاصة بها ، وتصدر طبعات الكترونية . وتشير إحصاءات مؤسسة نيوزلينك الأمريكية في نهاية عام 1998 إلى أنّ عدد الصحف التي تدير مواقع على الشبكة في العالم قد وصل إلى 4900 صحيفة منها حوالي 2000 جريدة أمريكية . بينما لم يتجاوز عدد الصحف الإلكترونية على الشبكة الثمانين صحيفة في نهاية عام 1994.(1) وهذه الأرقام تشمل الصحف اليومية والأسبوعيات والدوريات والمجلات وغيرها من المطبوعات . وبينما تتبوأ المطبوعات الأمريكية مركز الصدارة من حيث عدد المواقع الإلكترونية فإنّ المطبوعات غير الأمريكية تشمل نسبة 43 % من إجمالي هذه المواقع.(5)

ثانياً : إنّ عددا لا بأس به من كبريات الصحف في أمريكا وأوروبا و اليابان قد فصل ما بين الجريدة المطبوعة والنسخة الإلكترونية من حيث الإدارة والتحرير وطبيعة المحتوى ومصادر الدّخل والإنفاق لكل منهما. مثال على ذلك صحف"الواشنطن بوست" و"نيويورك تايمز" البريطانية.. وأصبحت النسخ الإلكترونية بوابات إعلامية شاملة تجدد محتواها على مدار الساعة طيلة أيام الأسبوع وتسبق في كثير من الأحيان النسخ المطبوعة في نشر الأخبار .(6)

إنّ عددا من هذه المواقع الإلكترونية من دور النشر الصحفية يُعدُّ اليوم من أنجح البوابات الإلكترونية على الشبكة من حيث عدد الزوار أو المشتركين وحجم الدخول الإعلاني بحيث أصبحت هذه البوابات مستقلة تماما عن النسخة المطبوعة وتقدم خدماتها على مدار 24 ساعة . إنّ هناك مواقع إخبارية إلكترونية نشأت في بيئة إلكترونية أو ما يسمى اليوم ب: << الفضاء التفاعلي >> ، (espace) Interactif وحققت نجاحا باهرا إلى حدّ دفعها للخوض في عالم النشر التقليدي أيضاً أي ما يسمى " بالهجرة المعاكسة" مثال على ذلك مجلة (wired) (7)

إنّ جاذبية الإنترنت تكمن في سهولة نشر المعلومات عليها واسترجاعها منها وكونها وسيلة إعلام تفاعلية تمكن المستخدم من حرية التصفح وإبداء رأيه واختيار ما يريده من معلومات . كما أنها وسيلة اتصال تتيح له خدمات مثل البريد الإلكتروني (E.MAIL) والاتصال بالهاتف عن طريق الشبكة وسماع الموسيقى وحتى مشاهدة الأفلام . لذلك فإن الانتفاع بالشبكة ليس محصورا بالصحف الإلكترونية وإنما يتعدى ذلك إلى حيز أرحب وأمتع. إضافة إلى ذلك أن الإنترنت باتت تعني القمة في التعبير عن حرية الرأي بعيدا عن مقص الرقيب وقوانين المطبوعات والنشر، فلا حاجة لترخيص من وزارة الإعلام ولا لإذن توزيع أو رخصة مطبوعة أو موجة بث. فالإنترنت تجاوزت كل هذا. لا شك أن الإنترنت وهي اليوم في قلب ثورة المعلومات قد أصبحت سمة مميزة لواقع العولمة الذي نعيش. (8) فالكلام اليوم هو عن

الحكومة الإلكترونية ، وعن التجارة الإلكترونية ومدن الإنترنت وجامعات الإنترنت وغير ذلك . وبافتراض أن سنوات أو عقود تفصلنا عن تحقيق كل ذلك، ناهيك عن تحديات البطالة والفقر والتخلف والجفاف والجفاء السياسي بين بعض الدول العربية ، فإن استشراف المستقبل يؤكد أننا سنكون يوماً جزءاً من هذا التحول المعلوماتي ضمن إطار القرية العالمية سواء شئنا أو أبينا . هذا التغيير سيشمل شتى مناحي الحياة والصحافة المطبوعة بشكلها وواقعها الحالي لن تكون مستثناة بطبيعة الحال .

الصحافة الإلكترونية وحالة العالم العربي:

يوجد في العالم العربي، ما لا يقل عن 100 موقع إلكتروني لصحف عربية يومية وأسبوعية وهذا الرقم مستمر.(9) وحتى الآن لا يوجد استراتيجية أو حتى رؤية واضحة لدى الناشرين العرب لمدى تأثير الإنترنت على الصحافة المطبوعة كصناعة وكحرفة. إلا أن هناك توجهين:

الأول : اعتماد سياسة " الحد الأدنى " المتمثلة في إطلاق نسخ إلكترونية صماء من الصحيفة المطبوعة بأقل التكاليف ودون دخل يذكر والاكتفاء بالإشارة إلى أن للصحيفة موقعا على الإنترنت يقوم بدور التواصل ما بين الصحيفة وقارئها أين ما كان . وهذا التوجه هو الغالب الآن .

الثاني : هو الدخول إلى عالم الشبكة العنكبوتية بقوة من خلال بناء مواقع متميزة أقرب ما تكون إلى البوابات الشاملة. وما يميّز البوابات الشاملة (PORTALS) أن خدماتها لا تنحصر في تقديم آخر الأنباء السياسية وعلى مدار الساعة بل تقدم أيضا معلومات اقتصادية ومحركات بحث ومندتيات نقاش ساخنة - كما أنها تعني بأخبار الرياضة والفن والأدب وتقدم شرائط موسيقية . وحتى بالنسبة للمحتوى فإن عددا من البوابات تعاقد مع كبريات الصحف والمجلات العربية لشراء مقالات ومواضيع لإعادة نشرها إضافة إلى اعتمادها على وكالات الأنباء المعروفة وشبكة المراسلين الخاصة بها. وإذا كان العالم العربي مازال في حقبة دخول المطبوعات إلى الشبكة الإلكترونية وظهور البوابات والمواقع الإخبارية المستقلة عن هذه المطبوعات، فإن العالم العربي لا نظن انه سيظل بعيدا عما يحدث الغرب من اندماج بين عالمي المطبوعة التقليدية والنشر الإلكتروني وذلك لأسباب اقتصادية وجيهة .

أولاً : إن دور النشر الصحفية في العالم بأسره تتجه إلى تنويع نشاطاتها الإعلامية وذلك بدخول مجالات الراديو والتلفزيون والمطبوعات المتخصصة وإعداد المؤتمرات والإنترنت . مثال ذلك شركة تربيون التي تصدر صحيفة شيكاغو تربيون وتملك أيضا محطات تلفزيون وإذاعات ومجلات ومواقع إلكترونية واتصال بالشبكة الإلكترونية (10) وهذه وإن كانت ظاهرة جديدة لم تتبلور بعد في العالم العربي نظرا للقيود الحكومية على امتلاك وسائل الاتصال إلا أنها جزء راسخ من واقع صناعة الاتصال وثورة المعلومات في المجتمعات الغربية التي اعتمدت مبادئ اقتصاد السوقالديمقراطية الغربية.

ثانياً: إن العامل المشترك الرئيسي في صناعاتي النشر التقليدي والإلكتروني هو المحتوى المتميز ، فبدونه لا تتجح مطبوعة ولا ينتشر تلفزيون ولا يستثمر موقع على الإنترنت . ولهذا فإن شركات الاتصال " ميديا " الكبرى في الغرب تزوج بين ما تنتجه وسائل اتصالها بأنواعها التقليدية وغير التقليدية لتقوم بأمثل استخدام لذلك المحتوى عن طريق المواءمة وإعادة الاستخدام . ولأهمية المحتوى ما دفع شركة أمريكا أون لاين التي تدير أنجح بوابة إلكترونية في أمريكا إلى الاندماج مع شركة تايم وورنر وهي واحدة من أكبر شركات النشر والاتصال والترفيه في العالم من خلال صفقة قدرت بـ 120 بليون دولار.(11) وبانتظار تحقيق كل هذه المعادلات الاتصالية في العالم العربي. لا بدّ من الإشارة هنا أن أكثر من 120 مليون أمريكي متصل بشبكة الإنترنت وأنه في الوقت الذي يتحدث فيه الناشر العربي

ثالثا : إنّ عددا لا بأس به من كبريات الصحف في أمريكا وأروبا و اليابان قد الجدوى الاقتصادية من إنشاء مواقع إلكترونية فإن نظرائهم في الغرب قد استوعبوا الجانب الاقتصادي للنشر الإلكتروني تماما.
الخاتمة:

اتضح في الختام أن أي ظهور أو بروز لوسيلة اتصالية في المجتمع قد يؤدي إلى نوع من الارتباك في الوسائل السابقة لها، وهو ما حدث للصحافة المطبوعة من جراء ظهور الراديو والتلفزيون والبرق الفضائي المباشر وأخيرا الإنترنت ، إلا أن هذا الارتباك سرعان ما يندثر حينما تجدد الصحافة نفسها لمواجهة منافسيها . إلا أن التأثير الذي قد يقع هو في عادات وأنماط الاستخدام . أي في الحجم الزمني الذي يقضيه الأفراد أمام هذه الوسائل، وربما الحجم الذي كان يقضيه الأفراد في قراءة الصفحة قد تقلص أو تصدّع مع دخول هذا المتغيّر الإعلامي المسمى بالصحافة الإلكترونية وليس بحورتنا دراسات عن الكثافة تجاه الصحافة الإلكترونية سواء في العالم الغربي أو في العالم العربي حتى نحكم بشكل جيد عن علاقة الجمهور الجديد بهذا النوع من الإعلام (صحافة أون لاين) . ولكن مهما كان الامر ، يمكن أن ننهي هذا الموضوع بما ورد عن عبد الرحمن عزي حينما قال: إذا كانت الصحف قد أوجدت زمن القراءة ، فإن الإذاعة قد أضافت زمن الاستماع وقلّلت بعض الشيء من زمن القراءة ، ثم أتى التلفزيون فأضاف زمن المشاهدة فقلّلت بعض الشيء من الزمنين السابقين، ثم أتى الحاسوب والإنترنت فأضافت زمن التصفح وربما قد تقلّلت من الأزمنة الثلاثة السابقة (زمن القراءة (الجريدة) الاستماع (الإذاعة) والمشاهدة (التلفزيون).

المراجع

1. لجنة شون ماكبرايد ، أصوات متعدّدة وعالم واحد ، اليونسكو ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1981، ص: 186
2. جيهان أحمد رشتي، الإعلام ونظرياته في العصر الحديث، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ص: 86.
3. منى سعيد الحديدي وسلوى إمام علي ، الفيديو كاسيت ، أنماط مشاهدته وتأثيراته ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1985 ، ص :
4. جيهان أحمد رشتي، الإعلام ونظرياته في العصر الحديث، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ص: 86.
5. خلدون طبازة وأسامة الشريف ، تحديات الإعلام الإلكتروني ، العالم العربي والوسط الرقمي ، كتاب العربي ن العدد 55 يناير 2004 ن ص : 42 - 61.
6. عثمان العمير ، شهادة من عصر الإنترنت ، بحث مقدّم لندوة مجلة العربي ، مجلة العربي ، أبريل ، 2001 ، ص : 36-41
7. عثمان العمير ، المرجع نفسه .
8. أنظر : عبد اللطيف الصوفي ، العولمة وتحديات المجتمع الكوني ، مطبوعات جامعة منتوري ، قسنطينة ، سبتمبر 2001 ، ص : 69-11 .
9. خلدون طبازة وأسامة الشريف ، نفس المرجع السابق ، ص : 42 - 61
10. خلدون طبازة وأسامة الشريف ، نفس المرجع السابق ، ص : 42 - 61
11. Allain Masse ,Internet, la Révolution et pour demain paris,les Editions du téléphone . 1996 . p :